

وثائق فرنسية عن مقاومة زوايا العلم والقرآن للمشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر

د / نذير حمادو.

جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة -

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه أجمعين، وبعد... فإنه لمن دواعي الغبطة والسرور أن تنظم كلية أصول الدين والشرعية والحضارة الإسلامية - جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - ملتقى وطني حول " المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر 1830 - 1962 وتأثيراته المعاصرة " ونحن من سنوات خلت ننتظر مثل هذا الملتقى الذي يفضح الاستعمار ومشروعه الخبيث، الذي يسعى إلى إحداث تغيير جذري في البنية: الثقافية، والقيمية والدينية، والنفسية للمجتمع الجزائري، والحمد لله ها هو يتحقق ما كُنَّا نتمناه وقد كنتم أيها السادة الأساتذة الأفاضل بحقِّ مُؤَفِّقِينَ في اختياركم عنوانا لملتقاكم الكريم هذا و ها نحن نلبي دعوتكم الكريمة بالمشاركة في هذا الملتقى الواعد إن شاء الله تعالى.

محاضرتي ستكون بحول الله وقوته في المحور الثاني: " المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر في القرن التاسع عشر ".

وقد عنونتها بـ : " وثائق فرنسية عن مقاومة زوايا العلم والقرآن للمشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر ".
وسأتكلم في محاضرتي هذه عن العناصر الآتية:
- حالة التعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي.
- المشروع الثقافي الفرنسي في الجزائر المحتلة.
- وثائق استعمارية تبرز بوضوح دور زوايا العلم والقرآن في مقاومة المشروع الثقافي الفرنسي.

أبدأ بحالة التعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي فأقول:

إن هناك دلائل قاطعة تدل على أن التعليم قد ازدهر في الجزائر قبل الاحتلال فقد كتب الجنرال فالري سنة 1834م قائلاً: " كل العرب (الجزائريين) تقريباً يعرفون القراءة والكتابة؛ حيث هناك مدرستان في كل قرية ". وفي تقرير إلى نابليون الثالث، كتب الجنرال دو هوتبول سنة 1850م بأن " الدراسات الإسلامية كانت في وضع مزدهر نسبياً "، عشية الاحتلال.⁽¹⁾

أما المؤرخ مارسال إيميري الذي درس طويلاً الحياة الجزائرية في القرن التاسع عشر، فقد أشار إلى أنه كان في قسنطينة وحدها قبل الاحتلال، خمسة وثلاثون مسجداً تستعمل كمراكز للتعليم، كما كان هناك سبع مدارس ثانوية يحضرها ما بين ستمائة و تسعمائة طالب، ويدرس فيها أساتذة محترمون لهم أجور عالية

(1) - أشار إلى ذلك فانسان مونتاي في " التعريب الثقافي في الجزائر " في " بروف ". جانفي 1964م، ص 31-35.

أما بخصوص المدارس الابتدائية فقد كان هناك تسعون يحضرها 1350 تلميذاً.⁽²⁾

وقال مارسال إيميري أيضاً: "إن النسبة في التعليم بالجزائر نظراً إلى فرنسا كانت تبلغ هنا بالجزائر إلى 60 %، وأن عدد التلاميذ في التعليم الثانوي والعالي كان يبلغ ما بين الألفين و الثلاثة آلاف طالب، هم منتشرون في كامل أنحاء القطر الجزائري يترددون ما بين جدران الزوايا والمدارس والمساجد، وأنه كان يوجد يومئذ بمدينة تلمسان خمسون كُتّاباً يتداولونها ألفان من الطلبة، وكان التعليم بنوعيه الثانوي والعالي منتشرا بتلك النواحي، وأهم مراكزه جامع تلمسان الأعظم، وجامع أولاد الإمام، و زاوية عين الحوت وغيرها من الزوايا التي كانت تُعدّ معاهد علمية بهذه الولاية، وكان يبلغ عددها ثلاثين زاوية، ويقدر عدد الطلبة بها نحو الستمائة طالب.⁽³⁾

من خلال هذه النصوص الفرنسية من قادة عسكريين ومؤرخين، تبيّن لنا أن التعليم قد ازدهر في الجزائر قبل الاحتلال، وما دعوى المحتل الفرنسي أنه جاء

(2) - إيميري ص 235. في سنة 1850م كتب الجنرال بيدو في مذكراته بأنه كان في قسنطينة سنة 1837م تسعون مدرسة ابتدائية يحضرها من ألف و ثلاثمائة إلى ألف وأربعمائة تلميذ، ولكن في سنة 1850م لم يكن فيها أكثر من ثلاثين مدرسة يحضرها ثلاثمائة وخمسون تلميذاً فقط. أما بخصوص التعليم العالي، فقد أشار إلى أن عدد الطلاب سنة 1837م كان من ستمائة إلى سبعمائة، ولكن في سنة 1850م انخفض عددهم إلى ستين طالباً فقط. أشار إلى ذلك فانسان مونتاي، " بروف ". جانفي 1964م، ص 32. وانظر: الحركة الوطنية الجزائرية للدكتور: أبو القاسم سعد الله 62/2، وتاريخ الجزائر العام للأستاذ عبد الرحمن الجيلالي 240/4.

(3) - كتاب الجزائر على عهد الأمير عبد القادر ص 3. المطبوع في باريس سنة 1951م. وانظر: تاريخ الجزائر العام للأستاذ عبد الرحمن الجيلالي 240/4.

إلى الجزائر؛ لينشر الثقافة والعلم إلا أكذوبة أبطلتها وثائقهم التي لا يستطيعون رَدَّهَا.

المشروع الثقافي الفرنسي في الجزائر المحتلة:

منذ استقرار المستعمر الفرنسي بالجزائر سنة 1833-1834م قرَّر تطبيق مشروعه الثقافي الذي يطمس به معالم الهوية الجزائرية، فبادر إلى إنشاء مدارس للأطفال المسلمين، ولقد كانت دهشتهم كبيرة حينما لم يروا أحدا يدخلها وقد لوحظت هذه الظاهرة في كل من وهران، و عنابة، و قسنطينة وتلمسان، إلا أن المسؤولين على الإدارة المدنية، منذ مفاجأة الجزائر جدوا في تفسير تلك الظاهرة وعثروا عليها و هي:

لن تقبل أية أسرة مسلمة اختلاف أطفالها إلى مدارس الكفرة، و هنا أيضا كان للمقاومة جذور دينية، وفي الأرياف كان رؤساء المكاتب العربية يسعون إلى إقامة اتصال مع نشاط الزوايا و المشايخ خاصة إذا كانت المسألة تتعلق بإقامة تعليم اللغة العربية؛ لأن فرنسا أول ما اضطهدت اللغة الوطنية، وهي العربية - لسان الشرِّع، ولغة الشعب -، فقد اعتبرتها الإدارة الاستعمارية لغة أجنبية وميتة: أجنبية؛ لأن اللغة الفرنسية أصبحت اللغة الرسمية منذ قرار الإلحاق سنة 1834م ما دام هذا القرار في حدِّ ذاته كان يعني: أن الجزائر نفسها قد أصبحت فرنسية، وميتة؛ لا لأن مصيرها قد انتهى كمصير اللاتينية والإغريقية، و العبرية فقط، ولكن أيضاً؛ لأنها لن تكون قادرة على أن تصبح لغة حضارة.⁽¹⁾

(1) - انظر: الحركة الوطنية الجزائرية للدكتور : أبو القاسم سعد الله 63/2، نقلا عن بوسكي م 3 (1954م)، ص 23-24.

وعلى هذا الأساس أهمل المحتل الفرنسي تعليم اللغة العربية للجزائريين، واكتفى باستعمالها لأغراض إدارية استعمارية فقط، فقد بدؤوا أولاً بإزالتها من المدارس الابتدائية والثانوية، ثم إن تعليمها في الدراسات العليا لم يكن تثقيفاً، ولكن كان تحضيراً لبعض الإداريين و المترجمين؛ لإدارة الجزائريين؛ قصد التعجيل بالإدماج أما الأساتذة الذين تُعَيِّنُهُمُ الإدارة الاستعمارية لتدريس اللغة العربية فقد كانوا يُسمَّون بـ " أساتذة اللغة الدارجة " (2).

و لقد حاولت التحقيقات التي استمرت من سنة 1845م إلى 1847م كشف القناع عن تلك الظاهرة - أي: عدم التحاق أبناء المسلمين بمدارس العدو - التي كانت تستعصي عن الفهم، لكن دون جدوى؛ للعمل المنظم والسرية التامة في التخطيط والتنفيذ من شيوخ الزوايا وأتباعهم.

وثائق استعمارية تبرز بوضوح دور زوايا العلم والقرآن في مقاومة المشروع الثقافي الفرنسي.

قبل أن أخوض في هذه المسألة أنه على شيء مُهِمٌ يتعلق بالوثائق الفرنسية أثناء عهد الاستعمار؛ لأن النصف يكاد يجزم أنها الوثائق الوحيدة للتاريخ الجزائري فالوثائق الفرنسية - في نظري - يجب أن نقسمها إلى أطوار، وتميز بعضها من بعض؛ فهناك وثائق وتقارير وكتب مُخلصة في خدمتها للاستعمار الفرنسي وأرادت تقديم حقائق و واقع المجتمع الجزائري كما هو عليه؛ لفهم نفسية الشعب الجزائري؛ ليتمكنوا على ضوء هذه المعلومات الحقيقية من قهره، ومحاولة محو شخصيته، والقضاء على عناصر المقاومة والصمود فيه، وليجنبوا ساستهم

(2) - ج. ديارمي، " رد الفعل اللغوي في الجزائر "، م 36 (1931م)، ص 19. و انظر: الحركة الوطنية الجزائرية للدكتور : أبو القاسم سعد الله 63/2.

الأخطاء و الأغلاط أثناء إدارتهم والإشراف على شؤون الشعب الجزائري في الحياة اليومية، وذلك مثل كتاب " تاريخ ثورة 1871م للكاتب لوي رين؛ فقد سَجَّلَ هذه الثورة، ولم نجد من سجلها لا من الفرنسيين ولا من المسلمين ولكن ينبغي أن نأخذ الحوادث ونترك ما استنتجه وما علله وما حلله، وكذلك تاريخ الزوايا أو طرق الصوفية في الجزائر لهذا الكاتب نفسه الذي سماه les confreries religieuse en Algerie وهو كتاب قيم في سرد عناصر الزوايا التي قاومت الاستعمار الفرنسي، ومن ولاده، وكم لها من أتباع وكم لها من مقادير، وكم لها من مداخيل، فَذَلِكَ مُفَصَّلٌ في هذا الكتاب، وهو موجود، وكذلك كتاب الطرق الصوفية في الجزائر لكاتبه كبولاني، وهو كتاب قيم.

وهذا الطور ينتهي تقريباً في نهاية القرن التاسع عشر، أي: سنة 1900م، ويأتي الطور الثاني في هاته الوثائق والتقارير والكتب الاستعمارية عن تاريخ الجزائر ويبدأ من مطلع القرن العشرين، حيث تسابقوا في التزيف، والتزوير، وقلب الحقائق؛ قصد الحط من قيمة الشعب الجزائري المسلم، وإنكار أقدميته في الحضارة، والتمدن، وإنكار وجوده، وكيانه كأمة من الأمم، ومن ثمَّ حرمانه من الحرية، والسيادة، وخيرات بلاده التي جاؤوا؛ لنهبها واختلاسها، وكل ذلك بدعوى تمدينها، وإدخال التقدم والحضارة العصرية في ربوعها.

يوجد بين أيدينا نصان، ولا جدال فيهما، يلخصان قوة مقاومة زوايا العلم والقرآن للمشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر.

سأل دي نوفو محمد بن عبد الله أخا الشيخ بومعزة أثناء الثورة: " كيف يأمل العرب الانتصار علينا، وهم يسوسهم أناس لا سلاح لهم ولا مدافع ولا كنوز

٢. فأجابه أخو بمعزة: إن النصر بيد الله، و هو ينصر من يريد. وأضاف دي نوفو قائلاً: لم يكن محمد بن عبد الله متيقنا من حفظ الله لأخيه فحسب، بل كان يتردد بأن يقول لنا: إن النصر لابد أن يكون حليفنا، وذلك على الرغم من أن الهزيمة قد تلحق بنا " (١).

إن وجود النشاط الثقافي الإسلامي في الزوايا، والمضاد للمشروع الثقافي الاستعماري، جعل العدو يطرح العديد من الأسئلة: ما هي الزوايا ؟ وأين مقرها ؟ و ماذا يفعل فيها ؟ و كيف تحيا ؟ وما هو تأثيرها ؟. إن الزوايا تسهم بطريقة أكثر فعالية في مقاومة المشروع الثقافي الاستعماري ، ولكن إلى أي حد ؟.

لقد بذل الضباط المكلفون بالتحقيقات في سنة 1845م جهدهم في الإجابة على هذه الأسئلة؛ ليطوقوا نشاطات الزوايا المتعددة في مواجهة هذا المخطط الاستعماري الذي يسعى إلى إحداث تغيير جذري في البنية: الثقافية، والقيمية والدينية، والنفسية للمجتمع الجزائري.

وهذا نص مأخوذ من المفتشية العامة، ومن التقرير الشامل، الذي حرر بالجزائر سنة 1864م و الذي يتعلق بالزوايا ونشاطاتها العلمية والدينية المتعددة: " إن الدور الذي لعبه العنصر الديني إبان الثورة الأخيرة، لفت أنظار المسؤولين حول المعابد (الزوايا) الموزعة عبر المنطقة، ففي فرع دكس كان المذهب الديني الوحيد هو مذهب سيدي عبد الرحمن بُو قَبْرَيْن، وكان إمام ذلك المعبد (الزاوية) الشيخ الحداد الذي كان يقيم في بني عيدل، وكان بقبائل فرع دكس

(١) - إيفون تورين، " مجاهبات ثنائية في الجزائر المستعمرة مدارس طبية دين " 1830-1880
نشرة ماسبيرو 1971، ص 139. وانظر: زوايا العلم والقرآن في الجزائر لمحمد نسيب ص 192.

عدد من المُقَدِّمِينَ الذين يستقبلون الداخلين في الإسلام، كما يرأسون ندوات الإخوان، ولقد ارتفع عدد أتباع ذلك المذهب، خلال السنة، ارتفاعاً محسوساً! من الحراسة التي أقيمت عليهم؛ منعهم من القيام بأي نشاط سياسي فاكثفوا بمعارضة كل فكرة تدعو إلى التقدم (في نظر المستعمر)، و في فرع أو مال ضمت قبائل العريب، وبني جعد، وبني سليمان عدداً كبيراً من أتباع مذهب سيدي عبد الرحمن بُوقَيْرَيْن، لم يتسبب هؤلاء تلك السنة في أي شغب، أما مذهب سي المختار فكان يضم بعض الأتباع في الظهرة. لقد كان بفرع المدية مذهبان، الدرقاوة الذين كانوا معادين لنا كل العداء؛ لأن غايتهم كانت سياسية بوجه خاص أرادوا أن يشيدوا من جديد صرح أمبراطورية إسلامية ويطردونها. إن هذا المذهب منتشر جداً في الجنوب، ومن الصعب جداً مراقبتهم، لقد كانت ندوات الإخوان (أي: المريدين) سرية، و لقد كانت أغلبية رؤسائهم مع ذلك معروفة.

يعلقون اهتماماً أكبر لإعدادها، ولتأخذ على سبيل المثال التقرير الذي أعده الملازم بوسري بالمدية بعد ثورة 1864م، لقد أكد ذلك الملازم على الدور الذي لعبته الزوايا في التعليم و هذا يعتبر بالتأكيد أحد النشاطات التي اتفق عليها الناس جميعاً.

وُثِّبَتِ الوثيقة الآتية، والتي تُعَدُّ من أحسن الوثائق وأثراها، كيف يمكن للضابط الفرنسي جمع الأخبار؟

نُورِدُهَا ؛ للفائدة: " تسعى الزوايا التي يُدِيرُ مُعْظَمُهَا مُقَدِّمُونَ من مختلف المذاهب إلى إفساد عقول الأجيال المقبلة، وذلك؛ بيث عدم التسامح الديني في قلوب الشباب، وحملهم على كراهية الكافر، إن مشايخ الزوايا يختارون في تدريسهم

للفقراء نصوصا من القرآن معادية لنا؛ مما يحطم فيهم بسرعة الشعور الذي سعيانا؛ لتطويره فيهم من طرف مؤسساتنا، وتُعتبر التأثيرات الدينية من ألد أعدائنا، والتي يجب أن نخشاها، ونخطط لها سياستنا".

و لم يهمل بالتالي أي شيء، بحيث كان كل مسلم على اطلاع بما كان يجري داخل تلك الندوات ذات الطابع العلمي، و السياسي، ذلكم هو الجو الذي كان يسود الزوايا مثلما كان رئيس المكتب العربي (من العدو الفرنسي) يقدرها". ثم يشير بعدها إلى بعض الإيضاحات أكثر دقة حول العلاقات التي توجد بين تفكير الشبيبة المسلمة، والتعليم الذي كانت تتلقاه.

: "ولقد كانت القبائل الأشد عداا لنا، هي تلك التي كان ينتشر فيها التعليم الإسلامي، تلكم هي حسب رأينا أحد البراهين الدامغة؛ للميول والاتجاهات التي كانت تسود الزوايا، و من اليسير أن نرى من خلال هذا الحدث (غياب التلاميذ من مدارس العدو) تأثير الزوايا على الشبيبة العربية (المسلمة)، والصعوبات العظيمة التي كنا نواجهها؛ لتغيير طريقة التعليم المسموح بها في البلد، وأن الأسباب الأساسية التي كانت تساعد على إبقاء السكان الأهليين على حالة من الخرافة، و التعصب المُعَادِيَيْن لنا لأعلى درجة من الوجهة السياسية هي: المذاهب المنتشرة سريا من طرف النحل الدينية والمبادئ التي تُلقَّن وتُدَرَّسُ للشبيبة في الزوايا، والكتابات العربية التي كان الحجاج ينقلونها من مكان إلى مكان.⁽¹⁾

(1) - AOA 1/116 . نقلا عن محاضرة الدكتورة افون تورين " الأشكال الرئيسية للمقاومة في الجزائر. الملتقى السادس للفكر الإسلامي، الجزائر 1972م. 255/1.

إن زوايا العلم والقرآن كانت بحق عقبة أمام الاستعمار ومشروعه الثقافي؛ بحيث تصدت للغزو العقدي، والفكري، والثقافي، وكل ما يحمله الاستعمار لبلادنا، لا بالقوة؛ بل بالمقاومة العلمية، والرفض، والاعتزاز بالنفس، وكرهية أشياء الاستعمار، والنفور منها؛ لأن الاستعمار شرٌّ، وكل ما يأتي من الاستعمار فهو شرٌّ، يجب رفضه ومحاربه.

فكان أهم ما قامت به زوايا العلم والقرآن المحافظة على القرآن الكريم، واللغة العربية، والثقافة الإسلامية عموماً؛ وبذلك قُطِعَ الطريقُ أعداء الإسلام والوطن فوقف المستعمر الغاشم أمام هذه القلاع (زوايا العلم والقرآن) عاجزاً فاشلاً في سبيل تحقيق مشروعه الثقافي؛ لأن الله تعالى تَكْفَلُ بِحِفْظِ كتابه العزيز؛ حيث قال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، وضمن استمرار الدين الإسلامي على الرغم من كره الكافرين له قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: 32].

و كان تمسك الشعب الجزائري بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وبدينه الحنيف؛ سبباً بقائه، واستمرار حياته في خضم الشدائد والحن التي جعلته يثبت، ويصمد في وجه الطغيان والاستعمار، ويتحدى أساليب المكر والخداع، ولم يخدعه لمعان وسراب الطمع والإغراء. وسبب نجاحه، وانتصاره في حرب التحرير على أكبر دولة استعمارية في العصر الحديث.

لقد قال جي موليه الرئيس الفرنسي الأسبق: "إن الحركة الإسلامية التي تتسع في إفريقيا هي التي تهدد الامبراطورية الفرنسية في المغرب".⁽²⁾

(2) - نقلا عن كتاب: زوايا العلم والقرآن بالجزائر محمد نسيب ص50.

لقد أيقن الجزائريون من أول يوم للاحتلال أن هدف الفرنسيين هو القضاء على الإسلام واللغة العربية، ومعالم الحضارة الإسلامية عموماً؛ من أجل ذلك أدركوا جميعاً أن عليهم أن يعتصموا بحبل الله؛ حتى يستطيعوا التحرر، وهذا ما كان بالفعل.

والواقع أن الاستعمار الفرنسي لبلادنا الجزائر كان منذ البدء يحمل هذا المعنى من الحرب الصليبية؛ إذ لا ننسى بأن كلمة الصليب أو الروح الصليبية كانت وما تزال متحركة في أغلب الضباط الفرنسيين الذين كانوا يحكمون بلادنا، وكانت كلمة مسلمين ومسيحيين تُستعمل في ذلك الوقت، و في تلك اللغة تُستعمل أكثر من كلمة جزائريين وفرنسيين، وكانت كلمة الصليب والهلل تُستعمل في هذه المجاهدة أكثر من كلمة الثقافة العربية أو الثقافة الفرنسية.

وفي الأخير، أشكر الشكر الجزيل القائمين على هذا الملتقى، وأتمنى للمتقاكم الكريم هذا التوفيق والنجاح، وتحقيق المقصد. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.